بسم الله الرحمن الرحيم

٣٠ ــ سورة الروم

قال المهايمىّ : سميت بها لاشتمال قصتها على معجزة تفيد المؤمنين فرحا عظيما ، بعد ترح يسير . فتبطل شماتة أعدائهم . وتدل على أن عاقبة الأمر لهم . وهـذا من أعظم مقاصد القرآن .

وهى مكية . وآيها ستون آية .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الٓمٓ)

[٢] (غُلِبَتِ ٱلرُّومُ)

[٣] (فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ)

[٤] (فِي بِضْعِ سِنِينَ ، لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ)

[٥] (بِنَصْرِ ٱللَّهِ ، يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ)

[٦] (وَعْدَ ٱللَّهِ ، لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« الٓمٓ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ » اتفق المؤرخون من المسلمين وأهل الكتاب على أن ملك فارس كان غزا بلاد الشام وفتح دمشق وبيت المقدس ، الأولى سنة ٦١٣ ، والثانية سنة ٦١٤ . أى قبل الهجرة النبوية بسبع سنين ـ فحدث أن بلغ الخبر مكة . ففرح المشركون وشمتوا بالمسلمين ، وقالوا : أنتم والنصارى أهل كتاب . ونحن وفارس وثنيون . وقد ظهر إخواننا على إخوانكم . ولنظهرنّ عليكم . فنزلت الآية ، فتليت على المشركين . فأحال وقوع ذلك بعضهم . وتراهن مع الصديق رضى الله عنه على مائة قلوص ، إن وقع مصداقها . فلم يمض من البضع ـ وهو ما بين الثلاث إلى التسع ـ سبع سنين إلا وقد نظم هرقل جنود الروم وغزا بهم بلاد فارس سنة ٦٢١ . أى قبل الهجرة بسنة . فدوّخها ، واضطر ملكها للهرب . وعاد هرقل بالغنائم الوافرة . ولا ريب أن ذلك أعظم معجزات القرآن . أعنى إخباره عن غيب وقع مصداقه ،

واستبان للجاحدين من نوره إشراقه. وفى ضمنه،أن سائرغيوبه كذلك من ظهور الإسلام على الدين كله ، وزهوق الباطل ، وعلوّ الحق ، وجعل المستضعفين أئمة ، وإيراثهم أرض عدوّهم، إلى غير ذلك . وما ألطف ماقال الزبير الكلائىّ: رأيت غلبةفارس الرومَ. ثمرأيت غلبةالروم فارسَ . ثمرأيت غلبة المسلمين فارس والروم. كل ذلك فى خمس عشرة سنة ـ من أواخر غلبة فارس إلى أوائل غلبة المسلمين ـ والأرض (كما قال الزمخشرىّ) أرض العرب . لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم . والمعنى : غلبوا فى أدنى أرض العرب أى أقربها منهم ، وهى أطراف الشام « لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ» أى من قبل غلبة فارس على الروم «وَمِنۢ بَعْدُ»أى من بعد غلبة الروم على فارس . ويقال : لله العلم والقدرة والمشيئة من قبل إبداء الخلق، ومن بعد إفناء الخلق . والمعنى : أن كلا من كونهم مغلوبين أولًا ، وغالبين آخرا ، ليس إلا بأمره وقضائه، وعلمه ومشيئته . كماقال تعالى[1] (وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ) «وَيَوْمَئِذٍ» أى يوم إذ يغلب الروم على فارس ، ويحل ماوعده الله تعالى من غلبتهم « يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ ٱللَّهِ » أى تغليبه من له كتاب ، على من لا كتاب له . وغيظ من شمت بهم من كفار مكة . ويقال : نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين « يَنصُرُ مَن يَشَآءُ »أى من عباده على عدوّه « وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ» أى القاهر الغالب على أمره ، لايعجزه من شاءنصره «ٱلرَّحِيمُ»أى فى نصره وتغليبه من يشاء«وَعْدَ ٱللَّهِ ، لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى بحكمته تعالى ، فى كونه وأفعاله المحكمة ، الجارية على وفق العدل ، لجهلهم وعدم تفكرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧] (يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ)

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٤٠] .

[٨] (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم، مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ)

« يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا » وهو ما يوافق شهواتهم وأهواءهم « وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ » أى التى هى المطلب الأعلى « هُمْ غَٰفِلُونَ » أى لا يُخطرونها ببالهم . فهم جاهلون بها تاركون لعملها .

لطائف :

قال الزمخشرىّ : قوله تعالى (يعلمون) بدل من قوله (لا يعلمون) وفى هـذا الإبدال من النكتة ، أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسدّ مسدّه ، ليعلمك أنه لافرق بين عدم العلم الذى هو الجهل ، وبين وجود العلم الذى لا يتجاوز الدنيا . وقوله (ظَٰهِرًا) يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً . فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها . وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة ، يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة. انتهى.

وناقش الكرخىّ فى إبدال (يَعْلَمُونَ) قال : إن الصناعة لاتساعد عليه . لأن بدل فعل مثبت، من فعل منفىّ لايصح. واستظهر قول الحوفىّ؛ أن (يَعْلَمُونَ) استئناف فى المعنى.

وأشار الناصر إلى جوابه بأن فى تنكير (ظَٰهِرًا) تقليلا لمعلومهم. وتقليلُه يقربه من النفى. فيطابق المبدل منه .

أقول: التقليل هو الوحدة المشار لها بقول الزمخشرىّ (وفى تنكير الظاهر أنهم لايعلمون إلا ظاهراً واحداً ، من جملة الظواهر) .

وأما قول أبى السعود : وتنكير (ظَٰهِرًا) للتحقير والتخسيس دون الوحدة كما توهم ، فغفلة عن مشاركتها للتعليل الذى به يطابق البدل المبدل منه . فافهم .

ثم أنكر عليهم قصر نظرهم على ماذكر من ظاهر الحياة الدنيا ، مع الغفلة عن الآخرة بقوله (أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم) أى يحدثوا التفكر فى أنفسهم ، الفارغة من الفكر

والتفكر . فالمجرور ظرف للتفكر ، وذكره لزيادة التصوير . إذ الفكر لا يكون إلا فى النفس . والتفكر لا متعلق له ، لتنزيله منزلة اللازم. وجوز كون المجرور مفعول (يتفكروا) لأنه يتعدى بـ(فى) أى : أو لم يتفكروا فى أمر أنفسهم . فالمعنى حثهم على النظر فى ذواتهم وما اشتملت عليه من بديع الصنع ، وقوله تعالى « مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ » متعلق بقولٍ أوعلمٍ ، يدل عليه السياق. أى: ألم يتفكروا فيقولوا أو فيعلموا . وقال السمين : (ما) نافية . وفى هذه الجملة وجهان : أحدهما ـ أنها مستأنفة لا تعلق لها بما قبلها . والثانى ـ أنها معلقة للتفكر . فيكون فى محل نصب على إسقاط الخافض . انتهى . والباء فى قوله (بِٱلْحَقِّ) للملابسة . أى ما خلقها باطلا ولا عبثا بغير حكمة بالغة ، ولا لتبقى خالدة . وإنما خلقها مقرونة بالحق، مصحوبة بالحق «وَأَجَلٍ مُّسَمًّى» أى وبتقدير أجل مسمى، لا بدّ لها من أن تنتهى إليه. وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب . ولذا عطف عليه قوله « وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ».

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ، فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

[١٠] (ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ)

[١١] (ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[١٢] (وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ)

«أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ » أى قلبوها للزراعة واستخراج المعادن وغيرها ، مما كانوا أرقى فيه من أهـل مكة « وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا » أى بالأبنية المشيدة . والصناعات الفريدة ، ووفرة العَدد والعُدد ، وتنظيم الجيوش والتزيّن بزخارف أعجبوا بها ، واستطالوا بأبهتها. ففسدت ملكاتهم ، وطغت شهواتهم، حتى اقتضت حكمته تعالى إنذارهم بأنبيائهم، كما قال «وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ »أى الآيات الواضحات على حقية مايدعونهم إليه « فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ » أى فكذبوهم فأهلكهم . فما كان الله ليهلكهم من غير جرم منهم « وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ » أى عملوا السيئات « ٱلسُّوٓأَىٰٓ » أى العقوبة التى هى أسوأ العقوبات فى الآخرة ، وهى جهنم . و(ٱلسُّوٓأَىٰٓ) تأنيث (الأسوأ)، وهو الأقبح. كما أن (الحسنى) تأنيث (الأحسن) ثم علل سوء عاقبتهم بقوله تعالى «أَن» أى لأن « كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ* ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ » أى ينشئهم « ثُمَّ يُعِيدُهُۥ » أى بعد الموت بالبعث « ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» أى إلى موقف الحساب والجزاء « وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ » أى يسكتون متحيرين يائسين . يقال (أبلس) إذا سكت وانقطعت حجته.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ)

[١٤] (وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ)

[١٥] (فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ)

[١٦] (وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)

[١٧] (فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ)

[١٨] (وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ)

«وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا» أى يجيرونهم من عذاب الله كما كانوا يزعمون «وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ» أى بإلٰهيتهم وشركتهم لله تعالى، حيث وقفوا على كنه أمرهم « وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ » أى يتميز المؤمنون والكافرون فى المحالّ والأحوال «فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ» أى يسرّون «وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ» أى لا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم «فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ *وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ » لما ذكر الوعد والوعيد ، تأثره بما هو وسيلة للفوز والنجاة ، من تنزيهه تعالى عما لا يليق به ، والثناء عليه بصفاته الجميلة ، وأداء حق العبودية . و(الفاء) للتفريع فكأنه قيل : إذا صحّ واتضح عاقبة المطيعين والعاصين ، فقولوا : نسبح سبحان إلخ . والمعنى فسبحوه تسبيحا دائما . و (سبحان) خبر فى معنى الأمر بتنزيه الله تعالى وحمده . أى الثناء عليه فى هذه الأوقات التى تظهر فيها قدرته ، وتتجدد فيها نعمته . وقوله تعالى (وَعَشِيًّا) معطوف على (حِينَ) وتقديمه على (حِينَ تُظْهِرُونَ) لمراعاة الفواصل . وقوله (وَلَهُ ٱلْحَمْدُ) معترض بينهما . والمراد بثبوت حمده فيهما ، استحقاقه الحمد ممن له تمييز من أهلهما. قال أبو السعود : والإخبار بثبوت الحمد له ووجوبه على المميزين من أهل السموات والأرض ، فى معنى الأمر به على أبلغ وجه وآكده . وتوسيطه بين أوقات التسبيح ، للاعتناء بشأنه ، والإشعار بأن حقهما أن يجمع بينهما . كما ينبئ عنه قوله تعالى[1] (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ) وقوله تعالى[2] (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما؛ أن الآية جامعة للصلوات الخمس :(تمسون) صلاة المغرب والعشاء .و(تصبحون)

(١) [٢ / البقرة / ٣٠] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩٨] .

صلاة الفجر . و(عشيا) صلاة العصر و(تظهرون) صلاة الظهر. فإن قيل: لم غيَّر الأسلوب فى (عشيا) ؟ أجيب (كما قال أبو السعود) بأن تغير الأسلوب لما أنه لا يجى منه الفعل بمعنى الدخول فى العشىّ . كالمساء والصباح والظهيرة . ولعل السرّ فى ذلك أنه ليس من الأوقات التى تختلف فيها أحوال الناس ، وتتغير تغيرا ظاهرا مصححا لوصفهم بالخروج عما قبلها ، والدخول فيها ، كالأوقات المذكورة . فإن كلا منها وقت تتغير فيه الأحوال تغيرا ظاهرا . أما فى المساء والصباح فظاهر . وأما فى الظهيرة فلأنها وقت يعتاد فيه التجرد عن الثياب للقيلولة . كما مرّ فى سورة النور . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ)

[٢٠] (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ)

[٢١] (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ » أى كالإنسان من النطفة، والطائر من البيضة «وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ » كالنطفة والبيضة من الحيوان « وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ » أى بالنبات « بَعْدَ مَوْتِهَا » أى يبسها « وَكَذَٰلِكَ » أى : ومثل ذلك الإخراج « تُخْرَجُونَ » أى من قبوركم .

وقال المهايمىّ : أى : بالصلاة عن موت القلب إلى حياته ، ومن حياة النفس إلى موتها . ويحيي أرضها بنبات الهيئات الفاضلة ، بعد موتها بالهيئات الرديئة . وبالعكس بتركها . اهـ وآثر هذا المعنى، على بعده ، مراعاة لسياق الآية، من طريق الإشارة « وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ » أى

الباهرة الدالة على قدرته على البعث « أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ » أى يعنى أصلكم آدم عليه السلام . أو النطفة والمادة . أو على تقدير مضاف . أى ولا مناسبة بين التراب وبين ما أنتم عليه فى ذاتكم وصفاتكم « ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ » أى فى الأرض انتشارا ملأ البسيطة وشمل الكرة . فأخذتم فى بناء المدائن والحصون ، والسفر فى أقطار الأقاليم ، وركوب متن البحار ، والدوران حول كرة الأرض ، وكسب الأموال وجمعها ، مع فكرة ودهاء، ومكر وعلم، واتساع فى أمور الدنيا والآخرة. كل بحسبه. فسبحان من خلقهم وسيّرهم، وصرّفهم فى فنون المعايش وفاوت بينهم فى العلوم والمعارف، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة « وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ » أى جنسكم « أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا » أى تأنسوا بها . فإن المجانسة من دواعى التضامّ والتعارف « وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً » أى توادًّا وتراحما بعصمة الزواج ، بعد أن لم يكن لقاء ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أو رحم « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فى بدائع هذه الأفاعيل المتينة المبنية على الحكم البالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ)

[٢٣] (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

[٢٤] (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

[٢٥] (وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ، ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ)

«وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ» أى أولى العلم كما قال[1] (وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ)« وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ »أى لاستراحة القوى وردّ مافقدته « وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ» أى بالسعى فى الأسباب، والأخذ فى فضل الاكتساب «إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ» أى سماع تفهم واستبصار « وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا » أى من الصاعقة «وَطَمَعًا» أى فى الغيث والرحمة . أو لتخافوا من قهر سلطانه، وتطمعوا فى عظيم إحسانه « وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ » أى بالنبات « بَعْدَ مَوْتِهَآ » أى يبسها « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ* وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ » أى إرادته لقيامهما . قال أبو السعود: والتعبير عنها بالأمر، للدلالة على كمال القدرة، والغنى عن المبادئ والأسباب. وليس المراد بإقامتهما إنشاؤهما. لأنه قد بيّن حاله بقوله تعالى[2] (وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) ولا إقامتهما بغير مقيم محسوس، كما قيل. فإن ذلك من تتمات إنشائهما، وإن لم يصرح به، تعويلا على ماذكر فى غير موضع من قوله تعالى[3] (خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) الآية . بل قيامهما واستمرارهما على ماهما عليه ، إلى أجلهما الذى نطق به قوله تعالى فيما قبل[4] (مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى) وحيث كانت هذه الآية متأخرة عن سائر الآيات المعدودة، متصلة بالبعث فى الوجود، أخرت عنهن وجعلت متصلة به فى الذكر أيضاً، فقيل : « ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ » فإنه كلام مسوق للإخبار بوقوع البعث ووجوده، بعد انقضاء أجل قيامهما،

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤٣] . (٢) [٣٠ / الروم / ٢٢] .
(٣) [٣١ / لقمان / ١٠] . (٤) [٣٠ / الروم / ٨] .

مترتب على تعداد آياته الدالة عليه ، غير منتظم فى سلكها كما قيل . كأنه قيل : ومن آياته قيام السموات والأرض على هيآتهما بأمره تعالى، إلى أجل مسمى قدره الله تعالى لقيامهما. ثم إذا دعاكم ، أى بعد انقضاء الأجل من الأرض وأنتم فى قبوركم ، دعوة واحدة ، بأن قال : أيها الموتى ! اخرجوا ، فاجأتم الخروج منها ، وذلك قوله تعالى[1] (يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ) انتهى .

لطائف :

الأولى ـ الدعاء . إما على حقيقته ، أو الكلام تمثيل . شبّه سرعة ترقب حصول ذلك ، على تعلق إرادته بلا توقف ، واحتياج إلى تجشم عمل ، بسرعة ترقب إجابة الداعى المطاع على دعائه. أو هو مكنية وتخييلية ، بتشبيه الموتى بقوم يريدون الذهاب إلى محل ملك عظيم يتهيئون لذلك ، وإثبات الدعوة لهم قرينتها .

الثانية ـ قوله تعالى (مِنَ ٱلْأَرْضِ) متعلق بـ (دعا) كقوله : دعوته من أسفل الوادى فطلع إلىّ ، لا بـ (تخرجون) لأن مابعد (إذا) لا يعمل فيما قبله .

الثالثة ـ قال الكرخىّ : قال هنا (إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ) وقال فى خلق الإنسان[2] (ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ) لأنه هناك يكون خلق وتقدير وتدريج، حتى يصير التراب قابلا للحياة، فنفخ فيه الروح ، فإذا هو بشر . وأما فى الإعادة فلا يكون تدريج . بل يكون بدء وخروج. فلم يقل هنا : (ثم) . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ)

[٢٧] (وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ، وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

(١) [٢٠ / طه / ١٠٨] . (٢) [٣٠ / الروم / ٢٠] .

«وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى خلقاً وملكاً وتصرفاً « كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ » أى منقادون لتصرفه ، لا يتأبون عليه « وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ » أى بعد موتهم . قال أبو السعود : وتكريره لزيادة التقرير ، والتمهيد لما بعده من قوله تعالى « وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » أى من البدء. أى بالقياس إلى ما يقتضيه معقول المخاطبين. لأن من أعاد منهم صنعة شيء، كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها. وإلا فهما عليه سبحانه سواء فى السهولة.

لطائف :

الأولى ـ تذكير الضمير ، مع رجوعه إلى الإعادة ، لما أنها مؤولة بـ (أن يعيد) .

الثانية ـ قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لِمَ أخرت الصلة فى قوله (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) وقدمت فى قوله[1] (هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ)؟ قلت: هناك قصد الاختصاص، وهو محزّه. فقيل (هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ)وإن كان مستصعبا عندكم أن يولد بين هِمّ وعاقر. وأما هٰهنا، فلا معنى للاختصاص كيف؟ والأمر مبنىّ على ما يعقلون، من أن الإعادة أسهل من الابتداء. فلو قدمت الصلة، لتغيّر المعنى . ا هـ .

قال الناصر: كلام نفيس يستحق أن يكتب بذوب التبر، لا بالحبر . وإنما يلقى الاختصاص من تقديم ما حقه أن يؤخر .

الثالثة ـ قال الزمخشرىّ: فإن قلت ما بال الإعادة استعظمت فى قوله[2] (ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ) حتى كأنها فضلت على قيام السموات والأرض بأمره ، ثم هونت بعد ذلك ؟ قلت : الإعادة فى نفسها عظيمة . لكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء . انتهى .

قال الناصر: إنما يلقى فى السؤال تعظيم الإعادة من عطفها بـ(ثم) إيذانا بتغاير مرتبتها وعلوّ شأنها. وقوله (فى الجواب): إنها هونت بالنسبة إلى الإنشاء، لا يخلص. فإن الإعادة ذكرت هٰهنا عقيب قيام السموات والأرض بأمره . وقيامهما ابتداء وإنشاء أعظم من الإعادة . فيلزم

(١) [١٩ / مريم / ٩ و ٢١] . (٢) [٣٠ / الروم / ٢٥] .

تعظيم الإعادة بالنسبة إلى ما عطف عليه من الإنشاء. ويعود الإشكال . والمخلص، والله أعلم، جعل (ثم) على بابها لتراخى الزمان لا لتراخى المراتب . وإن سلم أنها لتراخى المراتب ، فعلى أن تكون مرتبة المعطوف عليه العليا ، ومرتبة المعطوف هى الدنيا . وذلك نادر فى مجيئها لتراخى المراتب . فإن المعطوف حينئذ فى أكثر المواضع ، أرفع درجة من المعطوف عليه ، والله أعلم . انتهى .

وفى حواشى القاضى : إن (ثم) إما لتراخى زمان المعطوف فتكون على حقيقتها. أو لعظم مافى المعطوف من إحياء الموتى، فتكون للتفاوت فى الرتبة لا للتراخى الزمانى. والمراد عظمه فى نفسه وبالنسبة إلى المعطوف عليه. فلا ينافى قوله (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) وكونه أعظم من قيام السماء والأرض ، لأنه المقصود من الإيجاد والإنشاء، وبه استقرار السعداء والأشقياء فى الدرجات والدركات . وهو المقصود من خلق الأرض والسموات . فاندفع اعتراض الناصر بأنه ، على تسليمه ، مرتبةُ المعطوف عليه هنا هى العليا ، مع أن كون المعطوف فى مثله أرفع درجة ، أكثرىّ لا كلىّ . كما صرح به الطيبىّ هنا . فلا امتناع فيما منعه . وهى فائدة نفيسة. ويجوز حمله على مطلق البعد الشامل للزمانىّ والرتبىّ كما فى (شرح الكشاف) وقوله تعالى « وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى الوصف الأعلى الذى ليس لغيره ما يدانيه فيهما. كالقدرة العامة والحكمة التامة . وذلك لأنه لما جعل ما ذكر أهون عليه على طريق التمثيل، عقبه بهذا . فكأنه قيل هذا ، لتفهم العقول القاصرة أن صفاته عجيبة وقدرته عامة وحكمته تامة. فكل شىء بدءا وإعادةً وإيجادا وإعداما ، عنده على حد سواء ، ولا مثل له ولا ند . وقال الزجاج : المراد بالمثل قوله (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) فاللام فيه للعهد . فحمل المثل على ظاهره . وعلى ما ذكر أولا ، هو مجاز عن الوصف العجيب . فيشمل القول وغيره مما هو جار على ألسنة الدلائل ولسان كل قائل . اهـ (وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ) أى الغالب على أمره، الذى لا يعجزه بدء ممكن وإعادته « ٱلْحَكِيمُ » الذى يجرى أفعاله على سنن الحكمة والمصلحة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ، هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ، كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

[٢٩] (بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ، وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ)

« ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا » أى يتبيّن به بطلان الشرك « مِّنْ أَنفُسِكُمْ » أى منتزعا من أحوالها . وهى أقرب الأمور إليكم وأظهر كشفا « هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم » أى من العبيد والإماء « مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ » أى من الأموال وغيرها « فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ » أى متساوون فى التصرف فيما ذكر من غير مزية « تَخَافُونَهُمْ » أى تهابون أن تستبدوا بالتصرف فيه بدون رأيهم . وهو خبر آخر لـ(أنتم) « كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ » أى كما يخاف بعضكم بعضا من الأحرار المساهمين لكم فيما ذكر . والمعنى نفى مضمون مافصّل من الجملة الاستفهامية . أى: لاترضون بأن يشاركم فيما هو معار لكم مماليككم، وهم أمثالكم فى البشرية ، غير مخلوقين لكم ، بل لله تعالى . فكيف تشركون به سبحانه فى المعبودية ، التى هى من خصائصه الذاتية ، مخلوقه بل مصنوع مخلوقه، حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه؟ أفاده أبو السعود « كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ » أى مثل ذلك التفصيل الواضح ، توضح الآيات « لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى يقين وبرهان « فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ » أى سبب صرف اختياره إلى كسبه. أى: لايقدر على هدايته أحد « وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ » أى ينصرونهم من الله ، إذا أراد بهم عذابا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

[٣١] (مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ)

[٣٢] (مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ » أى فقوّمه له، واجعله مستقيما متوجهاً له. وفى النظم الكريم استعارة تمثيلية ، بتشبيه المأمور بالتمسك بالدين ورعاية حقوقه وعدم مجاوزة حدوده والاهتمام بأموره ، بمن أمر بالنظر إلى أمر ، وعقد طرفه به ، وتسديد نظره وتوجيه وجهه له، لمراعاته والاهتمام بحفظه «حَنِيفاً» أى مائلا عن كل ماسواه، إليه. قال المهايمىّ: ولا يعسر الرجوع إليه لكونه « فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا » أى لأن عقل كل واحد يدل على أنه حادث يفتقر إلى محدِث . ولا دلالة على الافتقار إلى متعدد أبداً. فالقول بتعدده تغيير للفطرة. لكن « لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ » أى لا تغيير لأمر العقل الذى خلقه الله للاستدلال «ذَٰلِكَ» أى الدين المأمور بإقامة الوجه له ، أو الفطرة « ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ » أى المستقيم الذى لاعوج فيه. قال المهايمىّ: وإن لم يقم عند المبدلين دليل على استحالة التعدد ، فهذا هو مقتضى الفطرة « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى أنه مقتضى الفطرة. وهى أقطع قاطع وأحسم حاسم لشغب المشاغب. لأنها من الأمور التى لاتدخل تحت الكسب والاختيار. وقوله تعالى « مُنِيبِينَ إِلَيْهِ » أى راجعين إليه بالتوبة والإنابة[1] (وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ) وهو حال من فاعل (الزموا) المقدَّر ناصباً لـ(فطرة) أو من فاعل (أقم) على المعنى . إذ لم يرد به واحد بعينه . أولأن الخطاب له ﷺ ولأمته. أو على أنه على حذف المعطوف عليه. أى: أقم أنت وأمتك. والحال من الجميع

(١) [٣ / آل عمران / ١٣٥] .

« وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ » أى جعلوه أدياناً مختلفة، لاختلاف أهوائهم «وَكَانُوا شِيَعًا» أى فرقاً « كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » أى كل حزب منهم فرح بمذهبه ، مسرور ، يحسب باطله حقا .

قال القاشانى : يعنى المفارقين الدين الحقيق ، المتفرقين شيعاً مختلفة ، كل حزب عند تكدّر الفطرة، وتكاثف الحجاب، يفرح بما يقتضيه استعداده من الحجاب ، لكونه مقتضى طبيعة حجابه . فيناسب حاله من الاستعداد العارضى ، وإن لم يلائم الحقيقة بحسب الاستعداد . ولهذا يجب به التعذيب عند زوال العارض . اهـ .

ثم احتج عليهم برجوعهم إليه عند الشدائد ، مما يحمل أن يرجع إليه بعبادته دائما ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)

[٣٤] (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

[٣٥] (أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ)

[٣٦] (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ)

« وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ » أى شدة « دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ » أى راجعين إليه وحده دون شركائهم «ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً »أى خلاصاً من تلك الشدة « إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ* لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ » أى بالسبب الذى آتيناهم الرحمة من أجله ، وهو الإنابة . واللام للعاقبة. وقيل : للأمر التهديدى كقوله تعالى «فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ

تَعْلَمُونَ » أى عاقبة تمتعكم ووباله « أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا » أى حجة واضحة قاهرة « فَهُوَ يَتَكَلَّمُ » أى تكلم دلالة . كما فى قوله[1] تعالى (هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ) « بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ » أى بإشراكهم . وهذا استفهام إنكار . أى : لم يكن شىء من ذلك « وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً » أى نعمةً من صحة وسعة « فَرِحُوا۟ بِهَا » أى بطراً ونخراً ، لا حمدا وشكرا « وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ » أى شدة « بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ » أى من المعاصى والآثام « إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ » أى ييأسون من روح الله . قال : هذا إنكار على الإنسان من حيث هو ، إلّا من عصمه الله تعالى ووفقه . فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال[2] (ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ) أى يفرح فى نفسه ، يفخر على غيره . وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل بعد ذلك خير بالكلية . قال الله تعالى[3] (إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ) أى : صبروا فى الضراء وعملوا الصالحات فى الرخاء . كما ثبت فى الصحيح[4] : عجباً للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له . إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرا له . وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

«أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » قال الزمخشرىّ : أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه هو الباسط القابض . فما لهم

---

(١) [٤٥ / الجاثية / ٢٩] . (٢) [١١ / هود / ١٠] . (٣) [١١ / هود / ١١] .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث رقم ٦٤ (طبعتنا)

يقنطون من رحمته ، ومالهم لا يرجعون إليه تائبين من المعاصى التى عوقبوا بالشدة من أجلها، حتى يعيد إليهم رحمته ؟

ولما بيّن تعالى أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم ، أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل ، ومايجب أن يترك ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ)

[٣٩] (وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ، وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ)

« فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ » أى من البر والصلة . واستدل به أبو حنيفة رحمه الله على وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب. لأن (آتِ) أمر للوجوب. والظاهر من (الحق) بقرينة ماقبله أنه مالىّ، وهو استدلال متين «وَٱلْمِسْكِينَ» وهو الذى لاشىء له ينفق عليه . أو له شىء لايقوم بكفايته « وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ » أى السائل فيه، والذى انقطع به . وحقهما هو نصيبهما من الصدقة والمواساة « ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ » أى النظر إليه يوم القيامة . وهو الغاية القصوى. أو يريدون ذاته بمعروفهم لارياء ولاسمعة، ولا مكافأة يد . كما قال تعالى[1] (ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ)«وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ» أى فى الدنيا والآخرة«وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا»أى مال ترابون فيه «لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ» أى ليزيد فى أموالهم ، إذ تأخذون فيه أكثر منه « فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ » أى لايزكو ولا ينمو

(١) [٩٢ / الليل / ١٨ـ٢٠] .

ولا يبارك فيه . بل يمحقه محق ما لا عاقبة له عنده إلا الوبال والنكال . وذكر فى تفسيرها معنى آخر ، وهوأن يهب الرجل للرجل، أو يهدى له ليعوّضه أكثر مماوهب أوأهدى. فليست تلك الزيادة بحرام . وتسميتها ربا مجاز ، لأنها سبب الزيادة .

قال ابن كثير : وهذا الصنيع مباح وإن كان لاثواب فيه . إلا أنه نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة، قال الضحاك، واستدل بقوله تعالى[1] (وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ) أى لاتعط العطاء ، تريد أكثر منه . وقال ابن عباس : الربا رباءان ، فرباً لايصح ، يعنى ربا البيع ، وربالابأس به ، وهو هدية الرجل ، يريد فضلها وإضعافها . انتهى .

وأقول : فى ذلك كله نظر من وجوه :

الأول ـ أن هذه الآية شبيهة بآية[2] (يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ) وهى فى ربا البيع الذى كان فاشيا فى أهل مكة حتى صار ملكة راسخة فيهم ، امتصوا بها ثروة كثيرمن البؤساء، مماخرج عن طورالرحمة والشفقة والكمال البشرىّ . فنعى عليهم حالهم، طلباً لتزكيتهم بتوبتهم منه . ثم أكّد ذلك فى مثل هذه الآية . مبالغة فى الزجر .

الثانى ـ أن الربا ، على ماذكر ، مجاز . والأصل فى الإطلاق الحقيقة، إلا لصارف يرشد إليه دليل الشرع ، أو العقل . ولا واحد منهما هنا ، إذ لاموجب له .

الثالث ـ دعوى أن الهبة المذكورة مباحة، لابأس بها بعد كونها هى المرادة من الآية ـ بعيدة غاية البعد. لأن فى أسلوبها من الترهيب والتحذير مايجعلها فى مصافّ المحرمات. ودلالة الأسلوب من أدلة التنزيل القوية، كما تقرر فى موضعه .

الرابع ـ زعمُ أن المنهىّ عنه هوالحضرة النبوية خاصة، لا دليل عليه إلا ظاهر الخطاب. وليس قاطعاً .

لأن اختصاص الخطاب لايوجب اختصاص الحكم على التحقيق. لايقال الأصل وجوب

---

(١) [٧٤ / المدثر / ٦] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٧٦] .

حمل اللفظ على حقيقته ، وحمله على المجاز لا يكون إلا بدليل ، وكذا ما يقال إن ثبوت الحكم فى غير محل الخطاب يفتقر إلى دليل ـ لأنا نقول: الأصل فى التشريعات العموم ، إلا اما قام الدليل القاطع على التخصيص بالتنصيص ، وليس منه شىء هنا . وقد عهد فى التنزيل تخصيصٌ مرادٌ به التعميم إجماعاً . كآية[1] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ) وأمثالها .

الخامس ـ أن فى هـذا المنهىّ عنه من إصعاد المرء إلى ذروة المحسنين الأعفّاء ، الذين لا يتبعون قلوبهم نفقتهم ، ما يبيّن أنه شامل لسائرهم . لما فيه من تربية إرادتهم وتهذيب أخلاقهم . بل لو قيل إن الخطاب له صلوات الله عليه ، والمراد غيره ، كما قالوه فى كثير من الآى ـ لم يبعد . لما تقرر من عصمته ونزاهته عن هذا الخلق ، فى سيرته الزكيّة . وحينئذ فالوجه فى الآية هو الأول ، وعليه المعوّل . والله أعلم « وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ » أى مال تتزكون به من رجس الشح ودنس البخل « تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ » أى ذوو الأضعاف من الثواب . جمع (مضعف) اسم فاعل (من أضعف) إذا صار ذا ضعف ، (بكسر فسكون) بأن يضاعف له ثواب ما أعطاه . (كأقوى وأيسر) إذا صار ذا قوة ويسار . فهو لصيرورة الفاعل ذا أصله . أو الذين ضعفوا ثوابهم وأموالهم ببركة ما أنفقوا . على أنه من (أضعف) والهمزة للتعدية ، ومفعوله محذوف ، وهو ما ذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ، سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » قال القاضى : أثبت له

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١] .

تعالى لوازم الألوهية ، ونفاها رأساً عما اتخذوه شركاء له من الأصنام وغيرها . مؤكداً بالإنكار على ما دل عليه البرهان والعيان ، ووقع عليه الوفاق . ثم استنتج من ذلك تقدسه عن أن يكون له شركاء . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[٤٢] (قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ، كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ)

[٤٣] (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ، يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ)

«ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ» أى كثرة المضار والمعاصى على وجه الأرض وعلى ظهر السفن فى لجج البحر « بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ » أى من الآثام والموبقات ففشا الفساد وانتشرت عدواه وتوارثه جيل عن جيل أينما حلوا وحيثما ساروا « لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » اللام للعاقبة . أى ظهور الشرور بسببهم ، مما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم ، إرادة الرجوع . وقيل اللام للعلة ، على معنى أن ظهور الجدب والقحط والغرق بسبب شؤم معاصيهم ، ليذيقهم وبال بعض أعمالهم فى الدنيا ، قبل أن يعاقبهم بجميعها فى الآخرة ، لعلهم يرجون عما هم عليه . كقوله تعالى[1] (وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) «قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ

(١) [٤٢ / الشورى / ٣٠] .

أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ » أى فأذاقهم سبحانه سوء العاقبة، لشركهم المستتبع لكل إثم وعصيان « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ » أى لا يقدر أحد على ردّه. وقوله « مِنَ ٱللَّهِ » متعلق بـ(يأتى) أو بـ(مردّ) لأنه مصدر على معنى لا يرده تعالى، لتعلق إرادته بمجيئه . وفيه انتفاء رد غيره بطريق برهانىّ . وقيل عليه، لو كان كذلك لزم تنوينه لمشابهته للمضاف . وأجيب بأن الشبيه بالمضاف قد يحمل فى ترك تنوينه . كما فى الحديث (لا مانع لما أعطيت) « يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ » أى يتفرقون كالفراش المبثوث ، أو فريق فى الجنة وفريق فى السعير كقوله[1] (وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ، وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)

[٤٥] (لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ، إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ)

« مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ » أى وبال كفره . قال الزمخشرىّ : كلمة جامعة ، لما لا غاية وراءه من المضارّ. لأن من كان ضارّه كفره، فقد أحاطت به كل مضرة «وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ » أى يسوّون منزلا فى الجنة . أى يوطئونه توطئة الفراش لمن يريد الراحة عليه « لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[٤٧] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ، وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

(١) [٣٠ / الروم / ١٤] .

«وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ» أى بالمطر «وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ» أى فى البحر عند هبوبها «وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ» أى بتجارة البحر «وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» أى ولتشكروا نعمة الله فيما ذكر «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ» هذه تسلية له ﷺ بمن قبله على وجهٍ يتضمن الوعد له والوعيد لمن عصاه. قال الزمخشرىّ : فى قوله تعالى (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ) تعظيم للمؤمنين ، ورفع من شأنهم، وتأهيل لكرامة سنية، وإظهار لفضل سابقة ومزية. حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم ، مستوجبين عليه أن يظهرهم ويظفرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ، فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

[٤٩] (وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ)

[٥٠] (فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ، إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)

«ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ» إما سائرا وواقفا ، مطبقا وغير مطبق ، من جانب دون جانب ، إلى غير ذلك «وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا» أى قطعا تارة أخرى «فَتَرَى ٱلْوَدْقَ» أى المطر «يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم» أى المطر

« مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ » أى لآيسين. قال الزمخشرىّ: من قبله، من باب التكرير والتوكيد، كقوله تعالى[1] (فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا) ومعنى التوكيد فيه، الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد، فاستحكم يأسهم وتمادى إبلاسهم. فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك . انتهى .

وعكسه ابن عطية رحمه الله فقال : إنه يدل على سرعة تقلب القلوب البشرية من الإبلاس إلى الاستبشار .

قال الشهاب : وما ذكره ابن عطية أقرب. لأن المتبادر من القبلية الاتصال. وتأكيده دال على شدة اتصاله « فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ » أى أثر الغيث من النبات والأشجار والحبوب والثمار « كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ » أى العظيم الشأن الذى ذكر بعض شؤونه « لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ)

[٥٢] (فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ)

[٥٣] (وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ، إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ)

« وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا » على الزرع « فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا » أى من تأثيرها فيه « لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ » أى من بعد اصفراره يجحدون ما تقدم إليهم من النعم ، أو يقنطون ولا يصبرون على بلائه . وفيه من ذمهم وعدم تدبرهم وسرعة تزلزلهم لعدم تفكرهم وسوء رأيهم ـ ما لا يخفى .

---

(١) [٥٩ / الحشر / ١٧] .

ثم أشار تعالى إلى أن من أنكر قدرته على إحياء الزرع بعد اصفراره ، وقد رأى قدرته على إحياء الأرض بعد موتها ، فهو ميت لا يمكن إسماعه خبر إحياء الموتى ، بقوله سبحانه « فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ » أى لما أن هؤلاء مثلهم ، لانسداد مشاعرهم عن الحق «وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ» قال أبو السعود: تقييد الحكم بما ذكر ، لبيان كمال سوء حال الكفرة والتنبيه على أنهم جامعون لخصلتى السوء ، نبوّ أسماعهم عن الحق ، وإعراضهم عن الإصغاء إليه. ولو كان فيهم إحداها ، لكفاهم ذلك. فكيف وقد جمعوها ؟ «وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْىِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ » أى ما تسمع «إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ » أى منقادون لما تأمرهم به من الحق .

تنبيه :

قال ابن كثير : وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بهذه الآية[1] (فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ) على توهيم[2] عبد الله بن عمر فى رواية مخاطبة النبىّ ﷺ القتلى الذين ألقوا فى قليب بدر ، بعد ثلاثة أيام ، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم . حتى قال له عمر : يا رسول الله ! ما تخاطب من قوم قد جيّفوا؟ فقال : والذى نفسى بيده! ما أنتم بأسمع لما أقول ، منهم. ولكن لا يجيبون . وتأولته عائشة على أنه قال : إنهم الآن يعلمون أن ما كنت أقول لهم حق .

وقال قتادة : أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته ، تقريعا وتوبيخاً ونقمة .

ثم قال ابن كثير: والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة . من أشهر ذلك ، ما رواه ابن عبد البر مصححا له عن ابن عباس مرفوعا (ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم، كان يعرفه فى الدنيا، فيسلّم عليه إلاردّ الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام) . انتهى .

وقال ابن الهمام : أكثر مشايخنا على أن الميت لا يسمع استدلالاً بهذه الآية ونحوها .

(١) [٣٠ / الروم / ٥٢] . (٢) الحديثان أخرجهما البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٨٧ ـ باب ما جاء فى عذاب القبر ، حديث ٧٢٦ و ٧٢٧

ولذا لم يقولوا : بتلقين القبر . وقالوا : لوحلف لايكلم فلانا ، فكلمه ميتاً لايحنث . وأورد عليهم قوله ﷺ فى أهل القليب (ماأنتم بأسمع منهم) وأجيب تارة بأنه روى عن عائشة رضى الله عنها أنها أنكرته. وأخرى بأنه من خصوصياته ﷺ معجزة له. أوأنه تمثيل. كماروى عن على كرم الله وجهه. وأوردعليه مافى مسلم[1] من أن الميت يسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا. إلاأن يخص بأول الوضع فى القبر ، مقدمة للسؤال ، جمعاً بينه وبين مافى القرآن . نقله الشهاب .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٤] (ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ، يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ، وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ)

[٥٥] (وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ، كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ)

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ » قرئ بفتح الضاد وضمها. أى من أصل ضعيف هو النطفة « ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ » يعنى حال الطفولة والنشء « قُوَّةً » يعنى حال البلوغ والشبيبة إلى الاكتهال وبلوغ الأشُدّ « ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً » أى بالشيخوخة والهرم « يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ » أى من الأشياء . ومنها هذه الأطوار التى يتقلب بها الإنسان « وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ » أى الواسع العلم والقدرة . كيف؟ وهذا الترديد فى الأحوال المختلفة والتغيير من صفة إلى صفة ، أظهر دليل على علم الصانع سبحانه وقدرته ، المستتبع انفراده بالألوهية « وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ » أى فى الدنيا أو القبور . وإنما يقدرون وقت لبثهم بذلك على وجه استقصارهم له . أو ينسون أو يكذبون أو يخمنون « كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ » أى مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الصدق والتحقيق فى الدنيا . وهكذا كانوا يبتون أمرهم على خلاف الحق . كذا فى الكشاف .

(١) أخرجه فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٧١ (طبعتنا).

وقال ابن كثير : يخبر تعالى عن جهل الكفار فى الدنيا والآخرة. ففى الدنيا فعلوا مافعلوا من عبادة الأوثان . وفى الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً. فمنه إقسامهم بالله أنهم مالبثوا غير ساعة واحدة فى الدنيا . ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم . انتهى .

وقال الشهاب : المراد من قوله[1] (كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ) تشابه حاليهم فى الكذب وعدم الرجوع إلى مقتضى العلم . لأن مدار أمرهم على الجهل والباطل. والغرض من سوق الآية وصف المجرمين بالتمادى فى الباطل ، والكذب الذى ألفوه . انتهى .

وقيل : كان قسمهم استقلالاً لأجل الدنيا ، لما عاينوا الآخرة ، تأسفاً على ما أضاعوا فى الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ، فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[٥٧] (فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ » ردًّا لما حلفوا عليه ، وإطلاعا لهم على الحقيقة « لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ » أى فيما كتبه الله وأوجبه بحكمته « إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » أى أنه حق ، لتفريطكم فى طلب الحق واتباعه « فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ » أى بالشرك ، أو إنكار الربوبية ، أو الرسالة ، أو شىء مما يجب الإيمان به « مَعْذِرَتُهُمْ » أى بأنهم كفروا عن جهل . لأنه إنما كان عن تقصيرهم فى إزالته ، أو عن عناد « وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » أى ولا يطلب منهم الإعتاب . أى إزالة

(١) [٣٠ / الروم / ٥٥] .

العتب بالتوبة والطاعة . لأنهما ، وإن كانتا ماحيتين للكفر والمعاصى ، فإنما كان لهما ذلك فى مدة الحياة الدنيا ، لا غير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ، وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ)

[٥٩] (كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[٦٠] (فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ، وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ)

« وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ » أى من كل وصف يوضح الحق ويزيل اللبس . أو من كل دليل على الأمور الأخروية . والحق يجرى مجرى المثل فى الظهور « وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ » أى مما اقترحوه أو غيرها « لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ » أى لا يؤمنون بها . ويعتقدون أنها سحر وباطل « كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أى لا يطلبون العلم ولا يتحرون الحق . بل يصرون على خرافات اعتقدوها وترهات ابتدعوها . فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ، ويوجب تكذيب المحق . قاله أبو السعود « فَٱصْبِرْ » أى على ما تشاهد منهم ، من الأقوال الباطلة والأفعال السيئة « إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ » أى فى قوله[1] (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ) « وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ » أى لا يحملنك على الخفة والقلق « ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » أى بما تتلو عليهم من الآيات البينة ، بتكذيبهم إياها ومكرهم فيها . فإنه تعالى منجز لك ما وعدك من نصرك عليهم ، وجعله العاقبة لك ، ولمن اعتصم بما جئت به من المؤمنين .

---

(١) [٣٧ / الصافات / ١٧١ ـ ١٧٣] .